تلعفر في المصادر التاريخية والجغرافية خلال العصور الإسلامية

18 – 656هـ / 639 – 1258م

د . إدريس سليمان محمد(*)

لقد كتب بعض الباحثين عن تاريخ تلعفر، ولكن في عصرها الحديث [1]، ولم اعثر على قدر علمي المتواضع من كتب عن تاريخ تلعفر في العصور الإسلامية، وهذا راجع في اعتقادي لسببين رئيسيين أولهما: للأحداث المهمة التي حصلت في هذه البلدة في العصر الحديث وبالذات ثورة العشرين مما شجع الباحثين على الكتابة عنها لكثرة المصادر والمعلومات المتوفرة، وربما كان سبب ابتعاد الباحثين ثانياً عن الكتابة عن بلدة تلعفر في العصور الإسلامية لقلة المعلومات المتوفرة عنها في هذه الفترة بالشكل المشجع لكتابة بحث بالمستوى المطلوب، لان التواريخ العامة مثل تاريخ اليعقوبي والطبري وغيره تظهر اهتماما اكثر بالأقاليم المركزية كالعراق والمقاطعات المجاورة لها ولا تهتم كثيراً بذكر تفاصيل عن ما يجري في الأقاليم البعيدة، اللهم إلا إذا حدثت أحداث غاية في الأهمية ورغم ذلك لا تذكرها تلك المصادر إلا باختصار. ولذلك جل الاعتماد

(*) مركز دراسات الموصل / جامعة الموصل.

(1) ابرز من كتب عن تاريخ تلعفر في العصر الحديث الباحثين محمد يونس السيد عبدالله، السيد وهب في كتابه تحت عنوان (تاريخ تلعفر قديماً وحديثاً). والباحث قحطان عبوش التلعفري في كتابه (ثورة تلعفر 1920 والحركات الوطنية الأخرى في منطقة الجزيرة).

في الكتابة عن هذه البلدان يكون على التواريخ المحلية التي كتبها مؤرخون من نفس المدينة إن وجد أو الأقاليم الذي عاشوا فيه مثل تاريخ الموصل (علما بأنه لم يتطرق لا عن قريب ولا عن بعيد إلى تاريخ بلدة تلعفر)، وتاريخ طبرستان وتاريخ سجستان. والمدن الإسلامية لم تكن محظوظة بوجود مؤرخين قد يرين من أبنائها كتبوا تاريخها[2]، أضف إلى ذلك كله كون بلدة تلعفر كانت تابعة إداريا في هذه الفترة إلى صاحب سنجار، فلم يردنا إلا الشيء اليسير عن تاريخها بشكل مستقل، وهذا ما جعل الباحث يلاقي صعوبة كبيرة في البحث عن تاريخ تلعفر في العصور الإسلامية، ورغم ذلك حاولنا البحث عن تاريخ هذا البلد في مصادره التاريخية والجغرافية خلال العصور الإسلامية، ونسأل الله ان يوفقنا لذلك، لان تلعفر من البلدان المشهورة في تلك النواحي كما يرد ذكرها في بعض المصادر مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير في مواضع كثيرة وكما جاء وصفها عند الحموي ومصادر تاريخية وجغرافية أخرى.

1. مقدمة تاريخية وجغرافية

تلعفر اسم مركب من لفظتين (تل، أعفر) فالتل معروف بدلالته، وأعْفَرْ بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الفاء وراء مهملة في الآخر [3]، هذا عند عامة الناس، واما اصله (التل الاعفر) للونه، وانما ترك تعريفه كلياً لكثرة

(2) فوزي: فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، ط1، بيروت، دار العلم، 1977، ص 22.

(3) السمعاني: أبو سعيد عبدالكريم بن محمد، الأنساب، تحقيق عبدالله عمر البارودي، ط 1، بيروت، دار الجنان، 1988، ج1، ص474. أبو الفدا: عمادالدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، طبعة الأوفست مكتبة المثنى، ص 284.

الاستعمال وطلب الخفة، واما خواصهم فيقولون (تل يعفر)، وتل أعفر بليدة قرب حصن مسلمة والرقة من نواحي الجزيرة[4].

تلعفر من البلدان المشهورة في تلك النواحي وقد وصف بانه اسم قلعة وربض بين الموصل وسنجار في وسط واد فيه نهر جار[5]، وهو على تل منفرد[6]، وفي تل أعفر أشجار كثيرة كما يذكر أبو الفدا [7]، ويخص صاحب كتاب سالك الممالك بلدة سنجار وتل أعفر والانبار بالنخيل[8]، ويجعلها الحموي[9]. (أي بلدة تل أعفر) لكثرة أشجار النخيل فيها انها كانت مصدرة للرطب إلى الموصل[10].

لقد حدد بعض الجغرافيون المسافة بين تلعفر والبلدان القريبة منها، بقولهم فمن تلعفر إلى بلد خمسة فراسخ، ومن تلعفر إلى سنجار خمسة فراسخ[11]،

(4) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، م2، ص39. وانظر البغدادي: صفي الدين عبدالمؤمن عبدالحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاري، ط 1، بيروت، دار المعرفة، 1954، ج1، ص 268.

(5) هذا الوادي الأثرى يقسم تلعفر قسمين لعله بقايا نهر كان قد تحدث عنه المؤرخون القدماء، ولم يبقى من اثر هذا النهر إلا عين تعرف بعين القلعة فهي كانت عماد المدينة ويسعى بها حاليا بساتين البلدة.

(6) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 285. البغدادي، مراصد الاطلاع، ج1، ص268.

(7) نفس المصدر والصفحة.

(8) الاصطخري: ابن اسحق إبراهيم بن محمد، تحقيق محمد جابر عبدالعال، الجمهورية العربية المتحدة، 1961، ص53.

(9) معجم البلدان، م2، ص 39.

(10) في الوقت الحاضر ليس في تلعفر سوى أشجار قليلة جداً للنخيل وهي لا تحمل شيئا وربما ذلك راجع لتغير الظروف المناخية، اما الآن فاغلب أشجارها التين والرُمّان.

(11) ابن جعفر، قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1981، ص 1140، ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله، بغداد، مكتبة المثنى، ص 216.

وقيل من بلد إلى تلعفر ستة فراسخ [12]، ويذكر القلقشندي ان تلعفر من الجزيرة ومن الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة[13].

ان الدلائل التاريخية لمنطقة تلعفر تشير إلى ارتقاء اثاريته إلى العصور الحجرية القديمة ليس هذا فحسب بل ان تمتعه بقيمة التقادم لكونه من المدن القليلة التي تواصل فيها التعاقب الحضاري وتواصلت فيها السكنى مع تواصل عطاء الإنسان فيه، وبهذا يشير الدكتور طارق مظلوم بان تاريخ تلعفر يرقى إلى عهود سحيقة في القدم حيث يرجع عهد الاستيطان فيها إلى حوالي (6000 سنة ق.م). واستمرت السكنى فيها إلى يومنا هذا[14].

وازدادت أهمية تلعفر في الألف الأول قبل الميلاد وبالتحديد في عهد الملك الآشوري (تكلات بلاصر الثالث 747 – 725ق.م) عندما قام بإنشاء ما يشبه اليوم بالمجمعات السكنية لتحصين طرق الجزيرة الشمالية وعلى أثرها نمت في هذه الفترة مدن عديدة منها تل بومارية، وتل عبطة، وتل حكنة في المنطقة المحصورة بين غربي دجلة إلى ضفاف الفرات [15]. انظر الشكل رقم واحد، وربما هذا هو نفس الطريق الذي سلكه الإدريس في رحلته إلى الشام حيث بدأ من الموصل ماراً ببلد ثم التل الاعفر الذي بات بها ليلة وقال (وظني انها كانت التل الاعفر فخففوها

(12) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 285.

(13) القلقشندي: أبو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، ط1، بيروت، ج4، ص 325- 326.

(14) وهب، محمد يونس، تاريخ تلعفر قديما وحديثا، الموصل، مطبعة الجمهورية، 1967، ص12 والتلعفري، قحطان احمد عبوش، ثورة تلعفر 1920 والحركات الوطنية الأخرى في منطقة الجزيرة، بغداد، مطبعة الأزهر، 1969، ص 9.

(15) وهب، المرجع نفسه، ص 12.

وقالوا تلعفر) [16]، ثم سنجار ثم قرقيسيا، ويمكن القول بهذا الصدد أن الموقع الجغرافي لبلدة تل أعفر أعطتها أهمية تاريخية مهمة في العصرين الآشوري والإسلامي لوقوعه على طريق مهم من الناحية العسكرية والتجارية [17]. والطريق الذي فتحه الآشوريون كان بمثابة خط استراتيجي كانوا يتقون بها شر القبائل التي كانت تغير بين فترة وأخرى على القوافل التجارية الآشورية القادمة من البحر المتوسط[18].

وكانت تلعفر معروفة في عهد الآشوريين باسم (نمت عشتار) وتحور بمرور الزمن إلى ان اصبح بالاسم الدارج والمعروف به ليوم (تلعفر أو التل الاعفر) [19]، وذكرت أيضا تل أعفر باسم تلسافانا التي عين موقعها العالم الألماني ريتر [20]، ببلدة تلعفر الحالية [21]. ويرى الاثاري لايارد الذي يعتبر من أوائل المنقبين أن

(16) الإدريس، الشريف نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق إبراهيم شوكة، بغداد، 1963، ص 270. وكذلك يقول السمعاني في كتابه الأنساب الجزء الأول، ص74 ما نصه (دخلتها في رحلتي إلى الشام وبت بها ليلة، وظني انها كانت التل الاعفر فخففوها وقالوا تلعفر.)

(17) وهب، تاريخ تلعفر، ص 7.

(18) المطبعي، حميد، رحلتي إلى شمال العراق، بغداد، مطبعة الأديب، 1986، ص 119.

(19) بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (أصول أسماء الأمكنة العراقية، مجلة سومر، ج 2، م8، لسنة 1952، ص 258. وانظر كذلك سعيد الديوه جي) (قلعة الموصل في مختلف العصور) مجلة سومر، ج 1، م1، لسنة 1954، ص4 وما بعده.

(20) ويتركازل: (1779- 1859م) جغرافي ألماني ألف كتاب الجغرافية العالية وخص فيه مجلدين بلاد سوريا ولبنان. انظر المنجد لويس معلوف.

(21) سالم الالوسي: (طرق القوافل في شمال العراق) مجلة سومر، ج1، م10، لسنة 1954،.

مدينة تلعفر هي المدينة التي جاء ذكرها باسم (تلا سار)[22] في سفر الملوك الثاني (9 - 12) واشعيا (37 - 12)[23].

ويبدو من دراستنا لتاريخ بلدة تلعفر ان سكانها كانوا عرباً حتى هجوم التركمان في القرن الثامن الهجري حيث توطنوا فيها وفي الأرض المجاور لها[24]. حيث ان القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام نحو العراق والشام استوطن بعضها في منطقة الجزيرة كبني ربيعة التي سميت منطقة تلعفر وسنجار باسمهم (ديار ربيعة) وهذا ما أشار إليه المسعودي بقوله (بلاد سنجار وتل أعفر من بلاد ديار ربيعة) [25]. واما القدسي فيقول (واما ديار ربيعة

(22) بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (أصول أسماء الأمكنة العراقية)، ج2، م8، ص258.

(23) يقول المطبعي: هل استطاع الاثاريون التدليل على باطنها الاثاري علماً بان البعثات الاثارية الأجنبية لم تقدم لنا أي مستند على وجود (تلا مار) في ارض تلعفر منذ القرن التاسع عشر وهي تنقب في جميع الأودية التي تربط مدن الشمال من العمادية وزاخو والموصل وتلعفر وسنجار وحتى صحراء سوريا. فيما المقصود من حشر هذه المدينة في ارض الجزيرة الشمالية، أليس هي عقدة نبوخذ نصر الذي قاد أسراهم إلى ضفاف بابل، يكتب بها بعض رحاليهم مدفوعين بغريزة النصوص الدينية، كالنص الوارد في نصوص اشعيا آموص الذي يكشف لنا دوافع بعض الاثاريين الأجانب إلى جعل المدن العراقية مدنا توراتية وجاء في هذا النص (لا جرم يا رب ان ملوك أشور قد دمروا جميع البلدان وأراضيها، والآن أيها الرب ألهنا خلصنا من يديه لتعلم ممالك الأرض كلها انك أنت الرب وحدك) إذا هي عقدة الحضارة. انظر المطبعي، رحلتي إلى شمال العراق، ص 114 – 115.

(24) توطن التركمان في المنطقة الضيقة التي تفصل المنطقتين الكردية والعربية وتبدأ حدودها من تل اعفر إلى القرى الواقعة في جنوب غربي الموصل وتمر باربل والتون كبري وداقوقا وطوزخورماتو وكفري وخانقين وتنتهي بمندلي. انظر الصوفي، احمد، خطط الموصل، الموصل، مطبعة الاتحاد الجديد، 1953، ص 121.

(25) مروج الذهب، ط4، بيروت، دار الأندلس، 1981، ج3، ص 100.

فقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة، معلثاي الحسنية تلعفر، سنجار...) [26]، واما البلاذري فيقول: ان عياض بن غنم صار إلى الجزيرة وبعث إلى سنجار ففتحها صلحاً واسكنها قوماً من العرب[27].

2. تلعفر في العصور الإسلامية المتقدمة

يمكن القول ان بلدة تل أعفر تم فتحها مثل سائر منطقة الجزيرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الراشدي الثاني على يد القائد عياض بن غنم لقوله البلاذري بقوله (لم يبقى بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم) [28]، وكان ذلك سنة (18هـ / 639م) فأذعن أهلها له بالطاعة فصالحهم على الجزية والخراج [29]. وكانت تلعفر قرية كبيرة كما تذكر المصادر وانها كانت بلدة رومية كمثيلتها سنجا والتي تبعد خمسة فراسخ[30]، وهي تقع غربي الموصل وتكون إلى سنجار اقرب.

(26) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 2، ليدن، مطبعة بريل، 1906، ص 137. وانظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 325.

(27) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، 1956، ق1، ص210.

(28) فتوح البلدان، ق1، ص 207. وانظر الهمذاني، أبو بكر احمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1885م، ص 132.

(29) الحموي، معجم البلدان، م 2، ص135: (يذكر الحموي ان الجزيرة غزاها عياض بن غنم سنة 17هـ). وانظر كذلك ابن كثير، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل، "البداية" والنهاية، ط 1، بيروت، 1966، ج7، ص93. وابن حجر العسقلاني، شهاب الدين. أبي الفضل احمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ط 1، مصر، مطبعة السعادة، 1328، ج3، ص5 يذكرها في سنة 19هـ.

(30) ابن جعفر، الخراج، ص 114. البلاذري، فتوح البلدان، ق1، ص 210. والصائغ، سليمان، تاريخ الموصل، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1928، ج2، ص 33.

وكانت منطقة تل أعفر والجزيرة كلها مسرحا للحروب الطويلة قبل الفتح الإسلامي لها، والتي كانت تجري بين الفرس والرومان، حيث جرت حروب طاحنة بين الرومان والفرس الساسانيين الذين خلفوا الحيثيين [31]، ولهذا نلاحظ بحكم السيطرة الرومانية انتشار الديانة النصرانية في منطقة سنجار وأبي مارية القريبة من تل أعفر، وفي تل أعفر نفسها وقيام الكنائس والأديرة فيما بعد فيها وهذا ما يخبرنا به العلامة ابن العبري بان كان للنصارى في تل أعفر كنيسة قديمة في عهد المغريان اغناطيوس الثاني لعازر وان هذا المغريان احتمل الأذى الكثير لأجل كنيسة تل أعفر ولم يذكر السبب وكذلك فتاة باسلة صمدت للتعذيب والتنكيل حتى ان البطريريك مارميخائيل الكبير قرظ شجاعتها وثباتها بقصيدة عصماء كما يقول، كما قرظها العلامة مارويونفيسيوس بقصيدتين [32] وربما كل ذلك كان من اجل الدفاع عن ديمومة وبقاء الكنيسة في بلدة تلعفر.

ومن خلال عرض الأحداث التاريخية لبلدة تل أعفر يتوضح لنا ونحن نقتبس بعض النصوص من المصادر، مدى ورود ذكرها في هذه المصادر بصورة مباشرة فبالإضافة إلى ما ذكرناه نجد ورود ذكر اسم بلدة تل أعفر في مصادر أخرى وفي مواضع ومواقع مختلفة حسب الأحداث التاريخية وما من شك في ان ابن الأثير(555 – 630هـ) يقف على رأس المؤرخين الذين ورد عنده ذكر بلدة تلعفر وخاصة في الجانب السياسي بما أتاحه له كونه مؤرخ المنطقة الأساسي، وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله ان أبا تغلب بن حمدان هرب من الموصل إلى

(31) التلعفري، ثورة تلعفر، ص9.

(32) تاريخ كنيسة المشرق وترجمة المغريان اغناطيوس لعازر لابن العبري، مجلة لسان المشرق السنة الأولى، شباط، آذار، 1949، العدد، 6، 7، ص 5- 36.

تل يعفر سنة (363هـ – 973م) عندما وجه بختيار وزيره أبي طاهر بين بقية والحجب سبكتين إلى الموصل ولم يعد أبا تغلب إلى الموصل إلا بعد ان استقر الصلح بينهما[33]، وورد ذكر نفس الحادث عند مسكويه في نفس السنة [34]، وهذا دليل على ان تل أعفر أصبحت جزءا من دولة آل حمدان بعد انفصالهم عن العباسيين فكان بعض أمرائهم يلتجأ إليها في حروبهم مع المنافسين لهم ربما لحصانتها أو اتخاذها منقذاً للتخلص من طوق الحصار الذي سيفرض عليه.

ويرد ذكر (تلعفر) بهذه الصورة المغايرة لصورتها الأولى في نفس كتاب الكامل في التاريخ فقد ذكرنا ورودها بلفظة (تل يعفر) في أحداث سنة (363هـ / 973م) بينما نجدها ترد بصيغة أخرى في أحداث سنة (420هـ / 1029م) بقوله تأخر الغُزّ إلى تلعفر على اثر مير قراوش إلى الموصل ومراسلتهم الغُزّ الذين كانوا بدياربكر وطلبهم المساعدة منهم ضد العرب[35].

وفي أحداث سنة (450هـ / 1058م) لما اضطربت أحوال الخلافة العباسية على اثر فتنة اليساسيري ودخوله بغداد وخروج الخليفة القائم بأمر الله إلى حديثه عانة مع قريش بن بدران ووضع الأخير الخليفة تحت حماية مها رش بن مجلي، فلما استقر الوضع للسلطان طغرلبك الذي كان مشغولا بحرب أخيه إبراهيم ينال، أمر برد الخليفة إلى داره ببغداد فخرج مها رش بالخليفة إلى تلعفر (هكذا وردت)

(33) ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ج8، ص 633 ـ 634.

(34) مسكويه، أبو علي احمد بن محمد، تجارب الأمم، مصر، طبع بالأوفست في مكتبة المثنى ببغداد، عن طبعة شركة التمدن الصناعية بمصر، 1914، ج2، ص 320.

(35) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 390.

ولما وصل الخليفة إلى النهروان استقبله السلطان هناك واعتذر عن تأخره بما يشغله عن ذلك[36].

وفي سنة (498هـ / 1104م) لما سمع صاحب الموصل جكرموش [37] بمسير السلطان محمد إلى الموصل جدد سور الموصل فلما حاصرها السلطان امتنع جكرموش بتسليمها له لأنه قد عاهد السلطان بركياروق ان لا يسلمها إلى غيره، فدافع عن الموصل دفاع المستميت فكان بعض جيوش جكرموش قد اجتمعوا بتل يعفر فكانوا يغيرون على أطراف العسكر ويمنعون الميرة عنهم[38]، وهذا أيضا يثبت لنا أهمية موقع تل أعفر من الناحية العسكرية لما يتمتع به من الاتصال الخارجي بحكم الموقع وهذا ما يعطي للقوة العسكرية حرية المناورة والإغارة والانسحاب إذا تطلب الأمر.

وفي سنة (499هـ / 1105م) لما خرج جكرموش من الموصل قاصداً حرب رضوان الذي حاصر نصيبين، فلما وصل تل يعفر وصلته الأخبار بانصراف رضوان عنها فرحل عند ذلك إلى سنجار[39].

---

(36) البنداري، الفتح بن علي بن محمد، تاريخ دولة ال سلجوق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، 1980، ص 17- 19.

(37) هو شمس الدولة جكرموش الذي أعقب كربوتا على ولاية الموصل (495- 500هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه. انظر خليل، عماد الدين، عماد الدين زنكي، الموصل، مطبعة الزهراء، 1985، ص 36.

(38) ابن الأثير، الكامل، ج1، ص 382 ـ 383.

(39) المصدر نفسه، ج10، ص 406.

لقد وردت معلومات مفيدة عن بلدة تل أعفر في مصادر أخرى[40]، إضافة إلى كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، ولكن يبقى الكامل له الأسبقية في حجم المعلومات الواردة فيها عنها، ورغم ذلك فان عدد هذه المصادر قليلة مقارنة بورود اسم بعض المدن المجاورة لها بالمصادر كسنجار وبوبمارية وفرقيسيا ونصيبين وغيرها من المدن بحيث يغني البحث بشكل جيد والسبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى ان ذكر أي مدينة أو بلدة يعتمد على كثرة الأحداث السياسية أو العسكرية الجارية فيها لأهمية موقعها واتخاذها كمراكزْ إدارية للدولة، أضف إلى ذلك ان تبعية بلدة تل أعفر في الفترات التاريخية المتعاقبة إلى المدن المجاورة لها إداريا كان لها

(40) ان أهم هذه المصادر والتي سأوردها حسب قدم تاريخ وفاة مؤلفيها مع ذكر اسم الكتاب والجزء ان وجد والصفحة علما باني قد استخدمت نصوص القسم الأكبر من هذه المصادر في بحثي هذا في الصفحات السابقة وسألقي الضوء على ما تبقى منها، وابدأ بالذكر كتاب يا فتوح البلدان للبلاذري ت 279هـ، ق1، القاهرة، 1956، ص 210. وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ت 300هـ، ص 96 و ص 216. والذي يعتبر أول مخطوطة في الجغرافية وصلتنا لكون ابن خرداذبة كان صاحب البريد (أواسط القرن الثالث الهجري). وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر ت 329هـ، بغداد، 1981، ص 114. وكتاب سالك الممالك للاصطخري ت منتصف القرن الربع الهجري، تحقيق محمد جابر عبدالعال، مصر، 1961، ص 53. وكتاب مروج الذهب للمسعودي ت 346هـ، بيروت، ط 4، 1981، ج3، ص 100. وكتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي، ت 387هـ، ليدن، 1906، ص 54، 137، 149. وكتاب الأنساب للسمعاني، ت 562هـ، تحقيق عبدالله عمر البارودي، ط1، بيروت، 1988، ج1، ص 474. وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، ت 626هـ، بيروتم 2، ص 39. وكتاب تقويم البلدان لأبي الفدا، ت 732هـ، بغداد، ص 284 ـ 285. وكتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للصفدي ت 727، بغداد، 1928، ص 191. وكتاب الوافي بالوفيات، ج 5، ص 255. وكتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لعبدالحق البغدادي ت 739هـ، تحقيق علي البجاري، ط 1، بيروت، 1954، ج1 ص 268. وكتاب صبح الأعشى للقلقشندي ت 821هـ، ط1، بيروت، 1987 ج4، ص 325 ـ 326 والجزء السابع ص 298 وآخرون.

أيضا دور مهم في التقليل من ورود ذكرها في المصادر كتبعية تلعفر إلى سنجار إداريا في العهود الزنكية وجعلها من أعمال صاحب سنجار كما تذكر المصادر[41].

3. تلعفر في العهود الزنكية

كانت الموصل والجزيرة خاضعة للسلاجقة في العقود التي سبقت تولي زنكي الموصل، وكان هؤلاء السلاجقة يقطعونها لأحد الأمراء الذين يعتمد عليهم[42] شرط ان يظل خاضعاً لهم ومرتبط بالسلطات السلجوقي مباشرة، وكان عماد الدين زنكي في هذه الفترة ضمن أولئك المقطعين. ولحب أولئك الولاة له وتقديرهم لوالده لمكانته عندهم، أخذت اقطاعات زنكي بالاتساع التدريجي [43]، وغدت (تل أعفر) إحدى اقطاعاته في هذه الفترة لقربه من الموصل [44] وفي سنة (521هـ / 1127م) اتفق زنكي مع الوفد القادم من الموصل بمطالبة السلطان بتوليته إمارة الموصل بدلا من ابن البرسقي، فوافق السلطان علي ذلك بعد ان اقتنع

(41) ابن شداد، عزالدين محمد بن علي بن إبراهيم، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام، والجزيرة، تحقيق يحيى عبادة، منشورات الثقافة والإرشاد القومي، 1978، ج3 ق1، ص 193 ـ 194. وانظر ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1979، ج2، ص267، 272.

(42) ففي عام (502هـ / 1108م) أرسل السلطان محمد الأمير (مودود بن التونتكين) إلى الموصل واقطعه إياها، ولما قتل مودود عام 507هـ اقطع السلطان هذه المدينة للأمير جيوش بك، ولما قام جيوش بك بثورة ضد السلطان عام 514هـ عزله السلطان واقطعه للبرسقي في العام التالي. انظر ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر احمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1963، ص 17، 19، 24، وأبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956، ج1، ص 68 ـ 73.

(43) ابن الأثير، الباهر، ص 17، 17، 24، 26. وأبو شامة، الروضتين، ج1، ص 68 ـ 74.

(44) خليل، عماد الدين زنكي، ص 214.

بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد، ومن ثم اصدر منشوراً بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام[45]. وبذلك استقر لزنكي ملك الموصل والجزيرة.

وما دام غاية البحث الأساسية هو تبيان ما جاء من ذكر لبلدة تل أعفر في المصادر ضمن الأحداث التاريخية وفي حقبها المختلفة، فنستعرض كما سبق ان استعرضنا ومن خلال الأحداث ورود ذكرها ضمن هذه الفترة ففي سنة (544هـ / 1149م) كما دخل نور الدين محمود الاتابكي سنجار، وسمع بها اتابك قطب الدين بن مودود والذي كان ملك الموصل والجزيرة، فجمع عساكره وسار نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين فنزلوا بتل يعفر وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه فعلته هذه وأخذه ما ليس له ويهددوه بقصده وإخراجه عن البلاد قهراً ان لم يرجع اختياراً، وترددت الرسل بينهم بعد ان كانوا عازمين على قصده بسنجار فاصطلحوا على تسليم سنجار إلى أخيه قطب الدين وعاد نورالدين إلى الشام[46].

وفي العشرين من شوال سنة (600هـ / 1203م) وعلى اثر استمالة الملك العادل (أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة) قطب الدين صاحب سنجار حتى خطب له، انهزم نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسار إلى مدينة نصيبين، فلما بلغه خبر ان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين على صاحب اربل قد قصد أعمال الموصل ونهب نينوى واحرق

(45) نفس المرجع، ص 41 ـ 45.

(46) ابن الأثير، الباهر، ص 95 ـ 97. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص 67. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج 3، ق1، ص 170 ـ 171.

غلانها سار نور الدين عن نصيبيين إلى الموصل فوصل إلى مدينة بلد وتحقق لديه ان ليس كل الذي بلغه صحيحا فسار من بلد إلى تل أعفر من أعمال سنجار وحاصرها وملكها ورتب أمورها وأقام فيها سبعة عشر يوماً، ثم سار نور الدين من تل أعفر إلى كفر زمّار وقصده المماطلة ليتفرق الجمع الذين أنفقوا ضده المتمثلة بصاحب سنجار واربل ومصر، ثم سار نور الدين إلى بوشري وهناك ترى الجمعان، فيها انهزم نور الدين ونجا بجمع قليل من عساكره، فطلب الموصل ونزلوا هم كفر زمّار فنهبوا البلاد نهبا عظيماً وطال مقامهم هنالك وترددت الرسل في الصلح على ان يعيد نور الدين تل أعفر لقطب الدين صاحب سنجار، وتوقف نور الدين في إعادة تلعفر في بداية الأمر ربما طال الأمر سلمها وأعادها إليهم واصطلحوا أوائل سنة (601هـ / 1204م) ورجع كل إلى بلده[47].

نستنتج مما سبق أمورا عدة أولها ان تل أعفر كانت من أعمال سنجار وتابعة لها، ثم ما سبق يؤكد لنا ثانياً أهمية موقع تل أعفر الجغرافي وخاصة من الناحية العسكرية لكونه حلقة الوصل بين الموصل وبلاد الشام والمناطق المجاورة لها مثل بلد وكفر زمار وسنجار (انظر الشكل) ولهذه الأهمية العسكرية كان كثيراً ما يحصل التنافس بين أمراء البيت الاتابكي حول السيطرة على هذه المدن وخاصة بلدة تل أعفر التي كانت محور النزاع فيما بينهم على الأغلب لأنها بلدة لا يستهان بموقعها التاريخي العسكري القديم إلى درجة انها دخلت في المفاوضات بين الطرفين كحد فاصل لإقرار الصلح بين المتنازعين.

ولما توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار في الثامن من صفر من سنة (616هـ/ 1219م) ملك يعده ابنه عمادالدين شاهنشاه وبقي ملكاً

(47) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 192 ـ 194. ابن خلدون، العبر، ج5، ص 266 ـ 267.

لسنجار وما يتبعها عدة شهور ثم سار إلى تل أعفر وهي له، فاغتاله هناك أخوه عمر بن محمد عندما دخل عليه ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه بعده فبقي كذلك إلى ان تسلّم سنجار إلى الملك الأشرف[48].

وفي ربيع الآخر من سنة (617هـ / 1220م) ملك بدرالدين بن لؤلؤ قلعة تل أعفر على اثر مسير ابن مشطوب [49] إليها وهي لصاحب سنجار قاصداً بلد الموصل ومعه جماعة يريدون الفساد والنهب، فلما سمع بدرالدين بذلك سير إليهم عسكراً فقاتلهم ثم مضى ابن مشطوب إلى تل يعفر واحتمى بها منهم، ونازلوه وحاصروه فيها، ثم سار بدرالدين من الموصل إليه في نهاية شهر ربيع الأول من نفس السنة وشدد عليه الحصار والهجوم تلوة بعد أخرى حتى ملك تل أعفر واخذ ابن مشطوب إلى الموصل فسجنه بها، ثم أخذه منه الأشرف فسجنه بحران إلى ان توفي في ربيع الآخر سنة (619هـ / 1222م)[50].

ولما ملك الأشرف مدينة سنجار في جمادي الأولى من سنة (617هـ / 1220م)[51] عندما سُلّمت له من قبل صاحبها عمر بن محمد زنكي بما

(48) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 355. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص 193 ـ 194.

(49) هو احمد بن علي بن المشطوب أحد اكبر الأمراء الذين كانوا مع الأشراف فاستماله مظفر الدين صاحب اربل ووافقه على ذلك غيره من الأمراء وفارقوا الأشراف ليمنعوه من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين لؤلؤ ضد زنكي، وعاد الأمراء كلهم إلى طاعة الأشراف بعد صلح استقر بينهم مع الأشراف إلا ابن مشطوب بقي وحده فسار إلى نصيبين ليسير إلى اربل مخرج إليه سحنة نصيبين فانهزم ابن مشطوب فاجتاز بطرق بلد سنجار فسير إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي بن مودود بن زنكي عسكراً فهزموه واخذ أسيراً وحملوه إلى سنجار، وكان صاحبها موافقا للأشراف وبدر الدين. انظر ابن الأثير، الكامل، ج 12، ص 341 ـ 343. وابن خلدون، العبرة ج5، ص 271 ـ 272.

(50) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 341 ـ 343، 399.

(51) المصدر نفسه، ج12، ص 399.

أدركه من الخوف عند استيلاء بدرالدين لؤلؤ على تل أعفر، ونفرة أهل دولته عنه لقتله أخاه، فأجابه الأشرف وأعطاه الرقة بدل سنجار وملك الأشرف سنجار [52]، وبلغ بدرالدين لؤلؤ أن الأشرف له رغبة وميل إلى تل أعفر لكونها كانت لسنجار عند قديم الزمان فسلمها إليه بدرالدين[53] هكذا يتبين لنا بشكل واضح وجلي أهمية بلدة تل أعفر عبر هذه النصوص التاريخية وخاصة العسكرية إلى درجة ان صاحب سنجار يسلم سنجار إلى الأشرف عندما استولى بدرالدين على تل أعفر.

ولم تعرف تل أعفر من خلال موقعها المهم وتاريخها العريق فحسب بل من خلال ظهور العديد من الشعراء في هذه الفترة مما أدي إلى رواج سوقها الأدبي وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء وأشهرهم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني المنعوت بالشهاب التلعفري والمولود بالموصل سنة (593هـ / 1196م)[54]، وكان أديبا فاضلا حافظاً للأشعار وأيام العرب وأخبارها وكان من شعراء الملك الأشرف [55]، قرأ الأدب على الشيخ أبي الحزم بالموصل وكان يدعى بالأديب الفاضل مشهوراً قيماً بالشعر مقدما فيه عند أدباء عصره، ومدح خلقاً كثيراً من الملوك والأمراء والأعيان وغيرهم [56]، وكان خليفاً معاشراً ولكن ابتلى بالقمار وهذا ما كان يُنغص له حياته واستقراره، فطرد من دمشق إلى

(52) ابن خلدون، العبر، ج5، ص 272.

(53) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص 345. وابن خلدون، العبر، ج5، ص 273.

(54) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق، بيروت، المطبعة الأمريكية، 1942، م7، ص 76. الكتبي، محمد شاكر فوات الوفيات، تحقيق، حسان عباس، بيروت، دار الثقافة، م4، ص 62.

(55) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ج7، ص 255.

(56) ابن الفرات، المصور السابق، م7، ص 76.

حلب، ثم عاد إلى دمشق وبقي يستجدي ويقامر في أتون الآجر[57]. فكان كثير التنقل يجوب الأمصار الإسلامية، فقد أنشد التلعفري لنفسه في بعض ليالي شهر رمضان سنة (638هـ / 1240م) بالقاهرة:

يا شيبُ كيف وما انقضى زمن الصبا عاجلت مني اللّمْةَ السوداء
لا تعجلن فو الذي جعل الدجى من ليل ظرّني البهيم ضياء
لو انها يوم الحساب صحيفتي ما سرّ قلبي كونها بيضاء[58]

وكان لشهاب التلعفري ديوان للشعر، وكان الشعراء مقرين له معترفين بفضله وتقدمه في هذا الفن[59]، وكان شعره لا يقل رقة عن أكابر الشعراء ومن حسنات العصر ان يبقى ديوانه صورة صادقة للشعر الحي والأدب اللطيف، ودواوين الشعر في هذا العصر قليلة، ولهذا يعد هذا الديوان صفحة من اجل الصفحات لبيان حالة العصر ودرجة اتصاله بالأدب العربي [60]، توفي الأديب الشاعر شهاب الدين التلعفري سنة (675هـ / 1276م) عن اثنين وثمانين سنة بحماة[61]، وان افضل ما انشده التلعفري هو قوله لنفسه قبيل موته وهو آخر شعره:

(57) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، بيروت، طبع بمساعدة المعهد الألماني للأبحاث االشرقية في مطابع دار صادر، ج5، ص 255.

(58) ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، م7، ص .

(59) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 272.

(60) العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1960، ص 312.

(61) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م7، ص 79. وانظر المقريزي، احمد بن علي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط2، 1956، ج1، ق1، ص 634.

إذا ما بات من تُرب فراشي وبت مجـاور الـرّب الكريـم
فهنوني اصـيحابي وقولـوا لك البشرى قَدِمْتَ على رحيم[62]

وقوله:

احب الصالحين ولست منهم رجاء أن أنال بهـم شفاعـة
وابغضُ مَن به اثر المعاصي وان كُنا سواء في البضاعة[63]

وأخيرا شعره عن تقويم صنعه لقطب الدين صاحب سنجار قوله:

تضمن حسبان مجرى النجوم وكـاد يبـوح بسـرِّ الفـلك
فمـا كان شـراً فللحاسـدين وما كان خيراً وبشرى فلك[64]

ويضيف العمري إلى جانب شهاب التلعفري شعراء وفضلاء آخرين منهم: خضر عبدالحق التلعفري الذي يصفه بانه كان أوحد أهل عصره شعراً وأدفاهم ذكراً توفي سنة (753هـ / 1352م) ومن شعره[65].

زار الحبيب وقد أشفى منبحـه على التلاق فأحيى ميت أشجاني
وبدل البعد قرباً والصدود رضا فرحت انعم في روحي وريحـان

وجمال الدين بن علي بن الحسن التلعفري الشاعر الموصوف بالذكاء والعالم الزكي والعلم الوفي توفي سنة (761هـ / 1359م) وله ديوان شعر منه[66]:

(62) ابن خلكان، وفيات الأعيان، م7، ص 45. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص 258.

(63) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م7، ص 77.

(64) الحميري، محمد عبدالمنعم، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت، 1984، ص 134- 135.

(65) العمري، ياسين خيرالله، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، بغداد، مطبعة دار البصري، 8968، ص 90.

(66) العمري، المرجع نفسه، ص 91.

لـو لم تـُـدَرْ بيمينــه الأقـداح دار بمقتلتهِ علينا الــراح
قمر لنا من حسن نبت عذاره وبخده الريحان والتفــاح

وأسعد بن يحيى السلمي التلعفري أحد الشعراء المتقدمين كما يقول العمري وصاحب النظم الفائق والنشر الرائق توفي سنة (775هـ / 1373م) ومن شعره قوله:

ومهفهف حلو الشمائل فاتر الالحاظ فيه طاعة وعقوق
وقف الرحيق على مراشف ثغره فجرى به من خده الراودق

وأخيرا الشيخ مراد المجذوب التلعفري صاحب الكشف الصريح، لما قدم الموصل كان فيه جذب رباني، فكان يطوق بالأسواق ويتكلم اللغة التركية، ظهرت له كرامات عديدة وممن شهد بكراماته صاحب كتاب غاية المرام الشيخ ياسين العمري الذي انفرد بنقله لنا هذه المعلومات [67] وتوفي مراد المجذوب سنة (1202هـ / 1787م) ودفن بمقبرة مجاورة لنبي الله شيت عليه السلام خارج سور الموصل[68].

(67) استفهم محقق الكتاب هنا بقوله لا ادري من أين جاء المؤلف يقصد العمري هذا الحجم من أدباء تلعفر ولم يشتهر منهم إلا واحد وهو الشهاب التلعفري، وتأخر بعضهم يدل على ان سوق الأدب كانت رائجة في تلعفر، ويضيف مستفهماً وبازدراء وهو استفهام غريب حقاً بقوله: كيف يصبح أديبا رقيقاً من يشرب من ماء عينها (عين تلعفر) الذي لا يصلح لطبخ العدس عجباً له كيف نَسِيَ العظماء والقادة والحكماء والبلغاء والشعراء والعباقرة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها واصبحوا بناة الحضارة فمن أيّ ماء وأين شربوا هؤلاء حتى وصلوا إلى ما وصلوا وما الذي يوصل الإنسان إلى القمة عقله أم بطنه. انظر العمري، غاية المرام، الهامش رقم (1)، ص 91.

(68) العمري، المصدر نفسه والصفحة.

الخاتمة

تعاقب على تسلم أمور مدينة سنجار وتل أعفر العديد من الأمراء حيث أخيرا استولى عليها السلطان بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ولم تزل سنجار في يد لؤلؤ إلى ان توفي فوليها بعده ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل مع الموصل بشكل مستقل، وتولى الملك المجاهد سيف الدين إسحاق الجزيرة وبلادها وولده الملك المظفر علاء الدين على سنجار وتل يعفر، ولم تزل سنجار في يد الملك المظفر بعد وفاة أبيه إلى شعبان من سنة (657هـ / 1258م)، ولما خرج منها الملك المظفر توجه أخوه الملك الصالح ركن الدين إسماعيل إلى سنجار وتسلمها وتل أعفر وولى فيها ولده الملك العادل نورالدين، ولم تزل سنجار في يد الملك الصالح إلى ان استشعر من التتار وخرج من الموصل، وبقيت سنجار وليس لها صاحب حتى اجمع أهل سنجار وفوضوا أمرهم إلى فخرالدين قاضيها ولم يزل القاضي يحكم فيها إلى ان قصد التتار الموصل وحاصروها [69]. وقد أبلى أهلها في الجهاد بلاءً حسناً وقام الملك الصالح إسماعيل بن بدرالدين لؤلؤ في ذلك خير قيام ولكن طول الحصار قد أنهك سكان المدينة فطلب الملك الصالح من قائد التتار سنداغوا الأمان له ولأهل البلد فأجيب إلى ذلك ولكن ما أن خرج متى قبض عليه وعلى ولده واتباعه ولقوا حتفهم على أيدي الغزاة ودخل الجيش مدينة الموصل وهي تقتل وتنهب وتسلب كعادتها [70]، وهكذا أسقطت الموصل

(69) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص 206 ـ 209.

(70) ابن الفوطي، أبو الفضل عبدالرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة المنسوب لابن الفوطي، بغداد، مطبعة الفرات، 1932، ص 346 ـ 347.

وما يتبعها من سنجار وتل أعفر على يد سنداغوا في سنة (660هـ / 1261م) فساءت أحوالها وتدهورت زراعتها وتقلص سكانها تدريجيا كما حدث لسائر مدن العراق بسبب سنين القحط والمجاعات التي حلت في هذه المدن[71].

وفي الختام أسال الله ان وفقت في عملي هذا ولله الحمد، ولا يفوتني ان اشكر الأستاذ المحامي علي الشيخ لما قدمه لي من بعض الكتب عند كتابة هذا البحث.

(71) التلعفري، ثورة تلعفر، ص 11.

شكل رقم (1)

مواقع تقريبية من عمل الباحث